

التجربة التاريخية العمانية في الوفاق الإسلامي المسيحي : وثيقة الإمام الصلت الخروصي أنموذجا^(*)

د.علي بن هلال بن محمد العبري
د.مبارك بن سيف بن سعيد الهاشمي
جامعة السلطان قابوس (سلطنة عمان)

بات من الواضح اليوم أنّ كلّ الدول أصبحت تحرص على نشر القيم الإنسانية بين أفراد مجتمعاتها وتبحث في ثنايا تاريخها عن مآثر أعلامها في هذا المجال قصد الاعتبار. وقد رأينا في هذا الإطار بالذات أن نخصّ بالبحث : "التجربة العمانية في الوفاق الإسلامي المسيحي : عهد الإمام الصلت أنموذجا".

ويندرج هذا البحث في إطار المساهمة في إثراء الأبحاث الموصولة بنشر ثقافة التسامح والوفاق بين الأديان والحضارات من جهة وإبراز خصوصيات التجربة العمانية في هذا المجال من جهة أخرى.

(*) محاضرة أقيمت في ندوة "الإسلام والمسيحية في بناء الوفاق"، بجامعة الزيتونة - تونس -

1 - الإطار العام لعهد الإمام الصلت الخروصي :

تميّز التاريخ العماني منذ القرن الثاني للهجرة بتاريخ حركة فريدة هي حركة المذهب الإباضي الذي كان له الأثر الواضح في نشأة الدولة العمانية وازدهارها في التاريخ الإسلامي وتكونت هوية المذاهب العقائدية والفكرية والشرعية في زمن مبكر في تاريخ الإسلام.

ومن أصول المذهب الإباضي وسماته المميزة له محافظته على مبدأي الشورى والانتخاب الحر للأئمة وقادة الأمة القائمة على مبدأي الرضا والتعاقد ويرى في ذلك أنه الوريث الحقيقي لتقاليد نظام الخلفاء الراشدين تلك الفترة التي تمثل المرجعية الإسلامية الوحيدة التي استمد منها الإباضية رؤيتهم وشرعيتهم ومبادئهم وقوانينهم في سبيل إقامة الدولة والمجتمع الإسلامي.

وفي ظل هذا الدستور الإسلامي العماني قامت دولة الإمام الصّلت بن مالك الخروصي الذي بويع له بالإمامة في 16 ربيع الآخر 237 هـ وهو اليوم الذي مات فيه المهنا بن جيفر الذي ظل في الإمامة عشر سنين وتسعة أشهر وسار المسلمون في عهده سيرة الحق والعدل واجتمعت له من القوة البرية والبحرية ما شاء الله فكان له في البحر أسطول قوي يضم ثلاثمائة مركب مهيأة للحرب وقوة برية تلازم مقر الإمامة قوامها عشرة آلاف مقاتل وسبعمئة ناقّة وستمئة فرس تركب عند أول صارخ، بمعنى أنها القوة الخاصة المستعدة للانطلاق لأية إشارة، فما ظنك بباقي الخيل والركاب في سائر ممالكه. وكانت الدولة العُمانية مترامية الأطراف عندما تولى قيادتها الإمام الصّلت بن مالك إذ بلغت شرق أفريقيا ومواقع في الهند وفارس وشرق آسيا. وكانت بعض المواقع غير

خالصة للمسلمين يخالطهم فيها بعض من أهل الأديان الأخرى، وتتعامل الدولة الإسلامية العُمانية معهم وفق التشريع الإلهي ويتم تحديد ذلك بكتابة العهود والمواثيق بينهم وبين الدولة من أجل أن تحفظ لهم حقوقهم وتدافع عن إنسانيتهم وتحقق لهم العيش الكريم والحياة الآمنة المستقرة دون تدخل في شؤونهم وعبادتهم، ويترك ذلك لقناعتهم ورغبتهم في الدخول في الإسلام مثلما جاء في قوله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾⁽¹⁾.

ومن المدن الخاضعة للدولة العُمانية جزيرة سقطرة التي تقع جنوب الجزيرة العربية وتبعد عن الساحل اليمني أكثر من خمسين كيلومتراً، وكان من بين سكان هذه المدينة أقلية من النصارى وكان بينهم وبين الدولة الإسلامية العُمانية عهد يحدد العلاقة بينهم ويؤمّن استقرارهم في الجزيرة غير أنهم تحالفوا مع نصارى الحبشة ونقضوا العهد، وهجموا على المدينة وقتلوا والي الإمام وبعض أنصاره وسلبوا البلاد ونهبوا العباد وملكوا المدينة قهراً وعاثوا في الأرض فساداً.

واستقر بالمدينة جملة من رحل من داخل عمان لأسباب كثيرة منهم من كان من أفراد جيش الإمام، ومنهم من كان من عمال الإمام لتثبيت دعائم الدولة وإعمار البلاد، ومنهم من كان بهدف السعي إلى طلب الرزق. ومن بين العُمانيين الذين استقروا في هذه الجزيرة يمكن أن نخص بالذكر حمد بن خلفان بن حميد الجهضمي الذي يعدّ من سكان سمد الشأن بعمان، ومن أتباع والي الإمام، وله ابنة تسمى فاطمة وتلقب بالزهراء كتبت قصيدة للإمام الصلت بن مالك الخروصي تذكر له فيها ما وقع من

(1) سورة البقرة، الآية 256.

النصارى بسقطرة وتشكو إليه جورهم وتستنصره عليهم. يقول مطلع القصيدة :

قل للإمام الذي ترجى فضائله ابن الكرام وابن السادة النجيب
وابن الجحاجة الشم الذين هم كانوا سناها وكانوا سادة العرب
وقالت :

جار النصارى على واليك واتهبوا من الحريم ولم يألوا من النصب
إذ غادروا قاسما في فتية نجب عقوى مسامعهم في سبب حرب
مجدلين سراعا لا وساد لهم للعاديات لسبع ضارئ كلب
وأخرجوا حرم الإسلام قاطبة يهتفن بالويل والأعوال والكرب
قل للإمام الذي ترجى فضائله بان يغيث بنات الدين والحسب
إلى أن قالت :

ما بال صلت ينام الليل مغتبطاً وفي سقطرى حريم باده النهب
يا للرجال أغيشوا كل مسلمة ولو حبوتم على الأذقان والركب.

وما أن وصلت هذه الاستغاثة إلى أسماع الإمام الصلت بن مالك الخروصي، حتى جمع جيشه، وجهاز المراكب، وولى عليها القادة : محمد بن عشيرة، وسعيد بن شملان، فإن حدث بأولهما حادث فالثاني يقوم مقام صاحبه، فإن حدث بهما جميعا حادث، ففي مقامهما حازم بن همام، وعبد الوهاب بن يزيد، وعمر بن تميم، وكتب لهم كتابا بين فيه مهمتهم والأعمال التي يجب أن يقوموا بها، والأفعال التي يجب أن يجتنبوها، وأودع عندهم عهدا يضبط الوفاق، ويحفظ الحقوق، ويحقق الأمن والاستقرار، وينهى الخلاف والنزاع بين الطوائف والأديان المختلفة.

2 - من مظاهر الوفاق بين المسلمين والمسيحيين في عهد الإمام الصلت بن مالك الخروصي :

1 - تقديم وثيقة العهد :

يبدأ العهد الخروصي بتوحيد الله تعالى وتسبيحه وتقديسه وإثبات الألوهية له والنبوة لرسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ثم وصية جامعة يأمر فيه الإمام قادة الأسطول وكافة الجند بتقوى الله والالتزام بمنهج الإسلام والعمل بالشورى والنصح والاتحاد، ويؤكد على الجند وجوب الطاعة والامتثال للأوامر الصادرة من القيادة ولا يغفل الإمام عن تذكيرهم بأخذ الحيطة والحذر في كل أمورهم.

ثم يأتي - بعد ذلك - ذكر سبب الحملة على جزيرة سقطرى⁽²⁾، والأوامر والتوجيهات التي يجب على الأسطول العمل بها منذ اقترابهم من الجزيرة وكيفية معالجة الوضعين السياسي والأمني فيها.

وقد أخذت الأحكام التفصيلية الخاصة بأهل الكتاب في أوقات الحرب وما بعد الحرب المساحة الكبرى من العهد.

وتحرك الأسطول العماني لمعالجة الأزمة التي نتجت عن نقض نصارى جزيرة سقطرى العهد الذي أبرموه مع الدولة العمانية، بقتلهم والي الإمامة ومن معه من العسكر، وسبي النساء المسلمات ونهب الأموال، وترويع الآمنين في الجزيرة.

(2) سبب الحملة كما يتضح من النص هو نقض بعض المسيحيين في الجزيرة العهد الذي ينظم العلاقة بينهم والدولة الإسلامية في عمان، ولم تقف على تأريخ إبرام هذا العهد بين الدولة والأقلية المسيحية، وهل دخلت الجزيرة في نطاق سلطة الدولة العمانية في عصر الإمام الخروصي أم قبله ؟ إلا أنه من المؤكد أن هنالك عهداً بين الدولة والأقلية المسيحية في الجزيرة. ذلك ما أشار إليه العهد موضع الدراسة.

ب - من مظاهر الوفاق بين المسلمين والمسيحيين :

كانت الحملة العسكرية بأسطول حربي على قدر كبير من العدد والعدة دلالة على رغبة الإمام في القضاء على حركة التمرد من خلال مبدأ إلقاء الرعب والرهبة في نفوس المتمردين وحملهم على الاستسلام بغير قتال، وليس بقصد التصفية العرقية والانتقام وإهلاك الحرث والنسل، وبما يؤكد هذا ما جاء في أوامر الإمام لقاندي الأسطول من عدم مباغته العدو بالهجوم، وإنما الاستفادة من كل الوسائل السلمية المتاحة والتي أشار إليها الإمام نفسه. وتتجلى مظاهر الوفاق بين المسلمين والمسيحيين حسب تصوّر هذا الإمام في :

- خطة الحملة :

حيث وضع الإمام لقادة الجيش خيارات متعددة ليكون لهم تقدير الموقف والعمل بالخيار المناسب الذي يحقق الغاية والهدف، فكانت الخطة الموسومة التي أمرهم بالالتزام بها متسلسلة المراحل، وتمثل هذه الخطة في الأمر بعدم مباغته القوم بالهجوم بل يُكتفى في بداية الأمر بمحاصرة القرية، قال : (فإن رأيتم أن يكون صمدك ومنزلكم قريباً من القرية الناكثة فتحاصروهم ويكون رسلكم إليهم من هناك)، ولعل مراد الإمام من ذلك أن يقوم القادة بدراسة ميدان الحملة والوقوف على الأحوال العامة لأنه ليس كل سكان الجزيرة قد نقضوا العهد. ومن هذا المنطلق يكون القيام بالهجوم فور وصول الأسطول وعدم التمييز بين الناكثين والموفين، ودون إنذار، تعقيدا للموقف وسببا في حصول نتائج سلبية.

- طمأنة من لم ينقض العهد :

وحيث أنه ليس كل النصارى في القرية قد نقضوا العهد، بل بقيت فئة على عهدهم - بنص الوثيقة - كان من أوامر الإمام للجيش أن يطمئن

هؤلاء الذين سماهم (أهل السلم والعهد) بأنهم " آمنون على أنفسهم ودمائهم وحررهم وذرائعهم وأموالهم وأنكم وافون لهم بالعهد والذمة والجزية على الصلح الذي يقوم بينهم وبين المسلمين فيما مضى، ولا ينقض ذلك ولا يبدله ".

وهذا الموقف من الذين أوفوا بالعهد ليس موقفاً مصلحياً مؤقتاً رآه الإمام انطلاقاً من المبدأ النفعي (الغاية تبرر الوسيلة)، أو تطبيقاً لمبدأ (فرق تسد) الذي قامت عليه السياسات الوضعية ردحا من الزمن، ولكنه التزام بالنصوص القرآنية الصريحة بإقامة العلاقة مع الغير على ميزان القسط المستقيم، فمن مبادئ العدل الثابتة في الإسلام حصر العقوبة في مرتكب الجرم، وعدم مؤاخذه أحد بجريرة غيره، فضلاً عن وجوب الوفاء بالعهد لمن دخل في عهد مع الدولة ولم ينكث في عهده، عملاً بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ۖ ﴾⁽³⁾.

وهكذا، فقد أكد عهد الإمام لقواده حقوق (أهل السلم والعهد) عصمة الأنفس والأموال، والوفاء بما جاء في العهد السابق بين الطرفين من غير نقض ولا تعديل.

- تشكيل وفد المفاوضات مع القرية الناكثة :

إنّ الحرب ليست غاية المسلمين في حد ذاتها، وإنما وسيلة لتثبيت دعائم السلم والعدل. ولتأكيد حسن نوايا المسلمين وإقامة الحجة البالغة على الناكثين نصح الإمام قادة الجيش أن يرسلوا وفداً مكوناً من عدد من النصاري الباقيين على العهد ومعهم رجل أو رجلان من المسلمين إلى (الناقضين بعهدهم). إنه تصرف يهدف إلى طمأنة (أهل السلم والعهد) إلى أن الحرب ليست هي الغاية من الحملة العسكرية الضخمة التي رآوها، وإنما

(3) سورة الإسراء / 15.

تهدف إلى إعادة الأوضاع إلى سابق عهدها. و يُظهر هذا التصرف منهج الدولة في بناء جسور الثقة مع الشعب وتعميق معاني الولاء في قلوبهم ولو لم يكونوا مسلمين، فضلا عن رغبة الإمام في إظهار حسن النية للناكثين وفتح طريق الرجوع لهم، وهذا واضح من طبيعة الرسالة التي حملها الوفد إلى الناكثين.

ولا يفوت المرء هنا أن يقف وقفة تأمل مع وصف الإمام لأهل الكتاب الذين هم على عهدهم بقوله : "واختاروا إليهم رجالا من خيارهم ممن يثبت إلى الصلاح منهم" فليس كل أهل الكتاب - في نظر الإمام - أهل شر وفساد بل فيهم من يستحق أن يوصف بالصلاح، وهذه قمة في الإنصاف واحترام الآخر وكأنني بالإمام - هنا - قد وضع نصب عينيه قوله تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قِيسِيْنَ وَرَهْبَانَا وَإِنَّهُمْ لَاسْتَغْبِرُونَ ﴾ ⁽⁴⁾ وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ قَاعِدُوا ﴾ ⁽⁵⁾ وقوله تعالى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ ⁽⁶⁾.

لقد كانت الغاية من الحملة إعادة الأمن والاستقرار للجزيرة وليس الحرب والقتل والتدمير، وكان لازماً أن يقوم الجيش باستثمار واستنفاد كل الوسائل والأسباب السلمية التي تساعد على ذلك، ومن بينها كسب هذه الفئة من النصاري إلى جانب المسلمين وذلك بثب الطمأنينة في نفوسهم أولاً، ثم بإشراك أحد منهم في الوفد المفاوض.

(4) سورة المائدة / 82.

(5) سورة الأنعام / 152.

(6) سورة الأنعام / 83.

- طرح ثلاثة خيارات :

نص العهد على أن تتضمن الرسالة التي سيحملها الوفد إلى (القرية الناكثة) ثلاثة خيارات :

ويتمثل الخيار الأول في الدخول في الإسلام : "فتدعوهم على لساني وألستكم إلى الدخول في الإسلام وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مع حقوق الله والانتفاء عن معصيته، فان قبلوا ذلك فهي أفضل المنزلتين لهم، وبذلك يحوا ما كان من حدثهم".

ودعوة أهل العهد إلى الإسلام مرة أخرى إذا نقضوا العهد، مسألة اختلف أهل العلم فيها، و أكثرهم لا يرى من واجب المسلمين عرض الإسلام مرة أخرى على المعاهدين إذا نقضوا العهد طالما سبقت إليهم الدعوة قبل ذلك، لكننا نرى الإمام يأخذ بالقول الآخر، فليس الغاية من الحرب القهر والاستبداد وسفك الدماء، بل إحقاق الحق وإبطال الباطل، وذلك أهم مقاصد الإسلام في بناء الوفاق مع الآخرين.

ويتمثل الخيار الثاني في العودة إلى الالتزام بالعهد السابق الذي كان قائماً بينهم والدولة : "فإن كرهوا أن يقبلوا الإسلام ويدخلوا فيه فلتدعوهم إلى الرجعة عن نكثهم والتوبة من حدثهم إلى الدخول في العهد الأول الذي كان بينهم وبين المسلمين..".

لقد كان من حق الدولة أن تتخذ أسلوباً آخر لمعالجة الموقف، فبحسب القانون الوضعي والمنطق العقلي أن تقوم الدولة بالتحقيق مع هؤلاء الغادرين بالعهد الخارجين على القانون، المنتهكين للحرمانات السفاكين للدماء، المنتهكين للأعراض، الناهيين للأموال، ثم تقام لهم المحاكم لينالوا العقاب العادل، وهو إجراء مشروع، تقره الشرائع جمعاء، ومتبع في كل الدول، حفظاً لحقوق الأفراد، وإنصافاً للمعتدى عليهم مهما كانت عقيدة

وجنسية المعتدي أو المعتدى عليه، وإلا كانت مسامحة المعتدي مكافأة له على حساب الآخرين، وإذا جاز للإمام العفو عن المجرم عن جرائمه الماسة بالمصلحة العامة لمصلحة تربوا على مصلحة إيقاع العقوبة بمستحقها، فلا يحق له العفو عن المعتدى على حقوق الأفراد، لأن من أصول التشريع الجنائي الإسلامي، ومما استقرت عليه القوانين المعاصرة أن حق الغير محافظ عليه، ومن لا يملك حقاً لا يملك إسقاطه قطعاً.

إذن كان الإمام قادراً والدولة من واجبها، والشرع يعطيها الحق في اتخاذ تلك الإجراءات انطلاقاً من مبدأ المعاملة بالمثل، ومع كل ذلك نجد هذا الإمام العادل يضرب الصفح عن هؤلاء إن هم جاؤوا مستسلمين منقادين، راغبين في العودة إلى الالتزام بالعهد السابق الذي نقضوه.

وكان من ترغيب الإمام لهم في اختيار هذين الخيارين أن بين لهم أن ذلك سيكون سبباً للعفو عنهم وعدم مؤاخذتهم على نقضهم العهد وما اقترفوا من آثام، عملاً بقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ ⁽⁷⁾ وقوله سبحانه : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ ⁽⁸⁾ وقوله جل وعز : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ ⁽⁹⁾.

هذا، وخوفاً من أن يصدر من القائدين أو الجند تصرفات غير حكيمة بدافع الرغبة في تأديب الناكثين بعد استسلامهم ورجوعهم إلى العهد السابق، أو يصدر شيء من الإهمال بحق هؤلاء، كما هي عادة المنتصر مع المغلوب، نرى الإمام يفصل أوامره تفصيلاً بيناً، ولا يتركها

(7) سورة الأنفال / 61.

(8) سورة النحل / 126.

(9) سورة الشورى / 40.

مجملة مبهمة، قابلة للاجتهد والتأويل، لقد أكد على وجوب توفير الأمن لأولئك الذين يرجعون إلى العهد السابق، ونص على تطمينات قاطعة وصريحة ومحددة يلتزم بها قادة الأسطول فنراه يأمرهم بقوله : "أقبلوا ذلك منهم ولا تعرضوا لأحد ممن جاءكم تائباً مستأمناً مستسلماً بسفك دمه ولا انتهاك حرمة ولا سبي ذريته ولا غنيمة ماله وليكونوا مثلكم آمين ومن صار منهم إلى أمانكم وعهدكم فليكونوا في أسركم آمين".

ولا يقف الأمر عند حقن الدماء وإعطاء الأمان، بل نرى أوامر القيادة العليا تأمر قادة الجيش بحسن معاملة أولئك القوم في الطعام والشراب وفي وجوب دفع الظلم عنهم، يقول : "وأحسنوا إليهم في طعامهم وشرابهم وامنعوهم ممن أراد ظلمهم حتى توصلوهم إلى المسلمين".

أما الخيار الثالث، فيتمثل في إعلان الحرب، وهو خيار تلجأ إليه الدول - عادة - عندما تسد في طريقها السبل الأخرى، ونرى من مبادئ القرآن الثابتة توجيه المسلمين إلى الجنوح إلى السلم متى ظهر من العدو ما يدل على ميله لخيار السلم والأمن : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ ⁽¹⁰⁾. أما إذا أراد العدو الحرب والاستمرار فيها، فليس من خيار للمسلمين سواها، يقول الإمام : "وإن رجع إليكم رسلهم فأخبروكم بأنهم كرهوا الدخول في الإسلام والرجعة عن نكثهم وحدثهم إلى العهد والذمة وإعطاء الجزية وكان في رسلهم رجلان ثقتان أو رجل واحد من أهل الصلاة ممن تثقون به صدق خبره فقد حل لكم عند ذلك مناصبة هؤلاء الناكثين ومحاربتهم بالمكائد والقتل حيث وجدتموهم".

(10) سورة الأنفال / 61.

وإذا كان لا بدّ من الحرب، فأَي حرب تلك التي يخوضها المسلمون، وكيف يتعاملون مع العدو ؟ وما هي أخلاقيات الحرب في الإسلام ؟

هنا يحدد الإمام شرطين لدخول الحرب وهما : رفض أولئك القوم الخيارين السابقين صراحة، وأن يكون ضمن الوفد الذي يأتي بخبر الرفض رجلان مسلمان أو مسلم واحد ممن يتصفون بالثقة والصدق، يقول : "وإن رجع إليكم رسلهم فأخبروكم بأنهم كرهوا الدخول في الإسلام والرجعة عن نكثهم وحدثهم إلى العهد والذمة وإعطاء الجزية وكان في رسلكم رجلان ثقتان أو رجل واحد من أهل الصلاة ممن تثقون به صدق خبره فقد حل لكم عند ذلك مناصبة هؤلاء الناكثين ومحاربتهم بالمكائد والقتل حيث وجدتموه".

ففي قوله : "وكان في رسلكم رجلان ثقتان أو رجل واحد من أهل الصلاة ممن تثقون به صدق خبره" تأكيد من الإمام بأن يكون خبر عدم قبولهم الدخول في الإسلام أو العودة إلى العهد السابق مؤكدا لا تشوبه شائبة ولا يداخله التباس أو تدليس، فترى الإمام يكرر أن يكون من ضمن الوفد الذي يأتي بالخبر من يتصف بالثقة والصدق، فلا يكفي أن يكونا مسلمين فحسب، وهذا يتماشى مع المنهج القرآني في التثبت من الأخبار بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ ⁽¹¹⁾.

- تكرار عرض الخيارات على العدو وتحريم مباغتته :

أما إذا لم يتمكن قادة الأسطول من إرسال وفد يعرض الخيارات الثلاثة على الناكثين، فلا يجوز للجيش أن يباغتهم بالحرب ويفاجئهم بالهجوم، يقول الإمام : "وإن لم تقدرُوا على رجلين ولا رجل من أهل

(11) سورة الحجرات / 6.

الصلاة من تثقون به في إبلاغ الحجة عليهم و إبلاغ مقاتلتهم إليكم، فلا تبيتوهم ولا تغتالوهم بالقتل ولا تسبوا لهم سبياً ولا ذرية وتغنموا لهم مالا، حتى تسيروا إليهم بأنفسكم" ثم لا يباغتوهم بالحرب بل يعرضوا عليهم الخيارين الأول والثاني مرة أخرى، فإن رفضوهما قاتلوهم، يقول الإمام : "فإذا وصلوا إليهم دعوهم إلى الإسلام والدخول فيه فإن أجابوا قبلوا منهم، وإن كرهوا دعوهم إلى الوفاء بالعهد والرجعة عن النكثة إلى حكم القرآن وحكم أهله من المسلمين بعمان إن قبلوا منهم، وإن كرهوا هلكوا الله وكبروه وحكموه وقتلوهم".

فعلى القادة إذن أن يعرضوا الخيارات الثلاثة على الطائفة الناكثة.

إنها الشفافية في المواقف، وقمة الشعور بالمسؤولية نحو حقوق الغير، حتى ولو كان ذلك الغير قد ذهب بعيداً في غدره وخيانتته قتلاً وسلباً. يقول تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا، اَعْدِلُوا هُوَ اقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (12).

- آداب الحرب في الإسلام :

ولم يغفل الإمام عن تذكير القادة والجيش عموماً بآداب الحرب التي جاء بها الإسلام في القرآن والسنة فقد أمر الإمام بعدم قتل المدبر والأسير والصبي والشيخ والمرأة إلا من اشترك في القتال منهم، ونهى عن التمثيل بالقتلى، يقول الإمام : "وإذا التحمت المعركة بينكم وبينهم فلا تقتلوا صبياً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة؛ إلا شيخاً أو امرأة أعانوا على القتال، ومن قتلتموه عند المحاربة فلا تمثلوا به فإن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن المثلة".

(12) سورة المائدة /8.

والإمام، في وصيته هذه، يسير على هدي سلفه من الخلفاء الراشدين والأئمة العادلين، وفي مقدمتهم الخليفة الراشد أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - الذي يقول في وصيته للجيش الإسلامي المنطلق إلى حدود الروم : "لا تمثلوا وتقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة، وسوف تمرّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له".

هذه الأحكام التي جاءت في عهد الإمام الصلت الخروصي، وقبله على لسان الصديق، يتجلى فيها سمو المنهج الإسلامي، وإنسانية رسالته، وشفافية الموقف ووضوح التوجه، والجنوح إلى تغليب مصلحة الناكثين في الدخول في الإسلام أو الالتزام بالعهد.

فمع كل ما ارتكبه الناكثون من نقض للعهد وسفك للدماء وسبي للنساء ونهب للأموال، لم تكن عند المسلمين رغبة في الانتقام، ولا الاندفاع نحو استئصال الأقلية النصرانية. كما لم تكن التصفية العرقية عند المسلمين - عبر تاريخهم الطويل وصراعهم المرير مع أعدائهم أهل كتاب كانوا أم غير أهل كتاب - هي الغاية والهدف ولا الأسلوب الذي انتهجوه حتى في حالات الدفاع ورد الظلم.

هكذا يتضح مما تقدم أنّ الوفاق والتعايش السلمي يعدّان من القيم الراسخة في الرسائل الإلهية، ومن الأهداف الثابتة التي تنشدّها التربية الإسلامية، فالدفاع عن الحقوق الإنسانية العامة للجميع، والمحافظة على حرية الإنسان وكرامته يدخل ضمن الواجبات الشرعية عند أتباع الرسائل الإلهية، وأيّ تجاوز أو عدوان على تلك الحقوق يعدّ تجاوزا وعدوانا على الدين.

كما أنّ الوفاق والتسامح والتعايش مع أصحاب الثقافات والديانات الأخرى تعتبر من قيم الرسائل السماوية، فقد أكد عليها الإسلام، وقد عبر المسلمون على مصطلحات "الإرهاب" و"العدوان" و"البغضاء" وما شابه هذه المعاني بالتعدي على حق الغير، ولها أحكام رادعة. وتبعا لذلك، فعلى المسلمين والمسيحيين المشاركة في مجال التفاهم والتعاون والوفاق الذي يجب أن يسود العالم لينعم الإنسان بحريته ويشعر بكرامته وإنسانيته، فالوفاق والتعاون والتسامح ضرورة حيوية وحقيقة لازمة لجميع الأمم والشعوب أفرادا وجماعات، فعلى المسلمين والمسيحيين تقديم النموذج الحسن والقُدوة الصالحة.

إنّ المسلمين والمسيحيين وغيرهم من أتباع الديانات الأخرى مدعوون اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى الوفاق والحوار والتعاون الدائم بهدف تجاوز الخلافات والدمار الذي يهدد البشرية في الشرق والغرب والخروج بعالم يسوده الأمن والسلام، فالأجيال الناشئة بحاجة إلى رؤية واضحة متكاملة تكشف حقيقة الأهداف والغايات التي من أجلها أرسل الله تعالى الرسل وأنزل الكتب. إنّ تطوير مناهج التعليم بهدف إدراك روح سماحة الإسلام ومنهجه في بناء الحياة الآمنة بين الشعوب، وعاليمته في الحث على السلام والتسامح والوفاق، والاطلاع على الثقافات والأفكار المعاصرة بات أمرا ضرورياً.

إنّ ازدهار التكنولوجيا والاتصالات الدولية لا تدعو بالضرورة إلى نشر الفوضى والنزاعات والحروب، وليس شرطاً أن تولد الأزمات الروحية والأخلاقية، فقد تضمّن تاريخ الحضارات والديانات نماذج من التفاهم والتسامح والوفاق دون أن يؤثر ذلك على أسس العقائد التي انبنت عليها.

فالمواثيق والعهود التي أبرمت بين المسلمين وبين غيرهم وخاصة مع المسيحيين تثبت أنّ الاختلاف سنة إلهية وحقيقة كونية ولا ينبغي أن يلغي هذا الاختلاف معنى الرحمة والوفاق والسلام بين الشعوب والأمم.

